الابتـــلاء

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فاتقوا الله ـ عباد الله ـ حقَّ التقوى، ففي التقوى زيادة النِّعم، ودفع النِّقم.

أيها المسلمون:

لقد قدر الله مقادير الخلائق وآجالهم، ونسخ آثارهم وأعمالهم، وقَسَم بينهم معايشهم وأموالهم، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً، والإيمان بقضاء الله وقدره ركن من أركان الإيمان، وما في الأرض من حركة أو سكون إلا بمشيئة الله وإرادته، وما في الكون كائنٌ إلا بتقدير الله وإيجاده، والدُّنيا طافحة بالأنكاد والأكدار، مطبوعة على المشاقِّ والأهوال، والعوارض والمحن فيها هي كالحرّ والبرد لا بدّ للعبد منها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: الآية ١٥٥].

والقواطع محن يتبين بها الصَّادق من الكاذب: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ

أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٢]، والنَّفس لا تزكو إلّا بالتّمحيص، والبلايا تُظهر الرجال، يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «من أراد أن تدوم له السَّلامة والعافية من غير بلاء، فما عرف التكليف ولا أدرك التسليم»، ولا بد من حصول الألم لكلِّ نفس، سواء آمنت أم كفرت، والحياة مبنية على المشاقِّ وركوب الأخطار، ولا يَطْمعُ أحد أن يخلص من المحنة والألم.

والمرء يتقلّب في زمانه في تحولٍ من النّعم واستقبال للمحن، آدم ـ عليه السلام ـ سجدت له الملائكة ثم بعد برهة يُخْرَج من الجَنّة، وما الابتلاء إلا عكس المقاصد وخلاف الأماني، والكلُّ حتم يتجرع مرارته ولكن ما بين مقلٍّ ومستكثر، يُبتلى المؤمن ليهذّب لا ليعذّب، فتن في السَّراء ومحن في الضَّراء: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٦٨]، والمكروه قد يأتي بالمحبوب والمرغوب قد يأتي بالمكروه، فلا تأمن أن توافيك المضرة من جانب المسرة ولا تيأس أن تأتيك المسرة من جانب المضرة قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٦].

فوطِّن نفسك على المصائب قبل وقوعها؛ ليهن عليك وقعها، ولا تَجْزعْ بالمصاب فللبلايا أمد محدود عند الله، ولا تسخط بالمقال، فرب كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان.

والمؤمن الحازم يثبت للعظائم، ولا يتغيرُ فؤاده، ولا ينطق بالشكوى لسانُه، وخففِ المصاب على نفسك بوعد الأجر وتسهيل الأمر لتذهب المحن بلا شكوى، وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصاب لئلا يتحملوا مع النوائب شماتةَ الأعداء، والمصيبة إن بدت لعدو سُرَّ واستبشر بها، وكتمان المصائب والأوجاع من شيم النُّبلاء، فصابرْ هجير البلاء فما أسرع زوالَه، وغاية الأمر صبرُ أيامٍ قلائل، وما هلك الهالكون إلا من نفاد

الجلَد، والصابرون مجزيون بخير الثواب: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٩٦]، وأجورهم مضاعفة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: الآية ٥٤]، بل وبغير حساب والله معهم، والنصر والفرج معلق بصبرهم.

وما منعك ربّك ـ أيّها المبتلَى ـ إلا لتُعطَى، ولا ابتلاك إلا لتُعافَى، ولا امتحنك إلا لتُصفَّى، يبتلي بالنِّعم وينعم بالبلاء، فلا تضيّع زمانك بهمّك بما ضمن لك من الرِّزق، فما دام الأجل باقياً كان الرِّزق آتياً، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية ٦]، وإذا أغلق عليك بحكمته طريقاً من طرقه فتح لك برحمته طريقاً أنفع لك منه.

بالابتلاء يرفع شأن الأخيار ويعظم أجر الأبرار، يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**قلت: يا رسول الله أيُّ النَّاس أشدّ بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثل من الناس، يبتلى الرَّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خفف عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على ظهر الأرض وليس عليه خطيئة**» (رواه البخاري). وطريق الابتلاء معبر شاقّ، تعب فيه آدم، ورمي في النار الخليل، وأضجع للذّبح إسماعيل، وألقي في بطن الحوت يونس، وقاسى الضرَّ أيُّوبُ، وبيع بثمن بخس يوسفُ، وألقي في الجبِّ إفكاً وفي السِّجن ظلماً، وعالج أنواعَ الأذى نبيُّنا محمدٌ ﷺ. وأنت على سنة الابتلاء سائر، والدُّنيا لم تصفُ لأحد ولو نال منها ما عساه أن ينال، يقول النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**» (رواه البخاري). قال بعض أهل العلم: «من خلقه الله للجنة لم تزل تأته المكاره».

والمصيبة حقاً إنما هي المصيبة في الدِّين، وما سواها من المصائب فهي عافية، فيها رفع الدَّرجات وحط السَّيئات، وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بليّة، والمصاب من حرم الثواب، فلا تأسَ على ما فاتك من الدنيا، فنوازلها أحداث، وأحاديثها غموم، وطوارقها هموم، الناس

معذبون فيها على قدر همِّهم بها، الفرح بها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها وأحزانها من أفراحها، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها».

فتشاغلْ بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك من رفع خلل، أو اعتذارٍ عن زلل، أو وقوف على الباب إلى ربِّ الأرباب، وتلمح سرعة زوال بليتك تهن، فلولا كرب الشدة ما رجيت ساعة الرَّاحة، وأجْمِع اليأس مما في أيدي النّاس تكن أغناهم، ولا تقنط فَتُخْذَل، وتذكر كثرة نعم الله عليك، وادفع الحزن بالرِّضا بمحتوم القضاءِ، فطول الليل وإن تناهى فالصبح له انفلاج، وآخر الهمِّ أوّل الفرج، والدَّهر لا يبقى على حال، بل كلّ أمر بعده أمر، وما من شدة إلا ستهون، ولا تيأس وإن تضايقت الكروب فلن يغلب عسر يسرين، وتضرّع إلى الله يزهُ نحوك الفرج، وما تجرع كأسَ الصبر معتصم بالله إلا أتاه المخرج، يعقوب ـ عليه السلام ـ لما فقد ولداً وطال عليه الأمد لم ييأس من الفرج، ولما أُخذ ولدُه الآخر لم ينقطع أمله من الواحد الأحد بل قال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: الآية ٨٣].

وربُّنا وحده له الحمد وإليه المشتكى، فإذا تكالبت عليك الأيّام وأغلقت في وجهك المسالك والدروب، فلا ترجُ إلا الله في رفع مصيبتك ودفع بليتك، وإذا ليلة اختلط ظلامها، وأرخى الليل سربال سترها، قلب وجهك في ظلمات الليل في السَّماء، وارفع أكفَّ الضَّراعة ونادِ الكريم أن يفرِّج كربك، ويسهّل أمرك، وإذا قوي الرجاء وجُمع القلب في الدعاء لم يرد النداء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: الآية ٦٢]، وتوكل على القدير، والجأ إليه بقلب خاشع ذليل، يفتح لك الباب، يقول الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «لو يئستَ من الخلق لا تريد منهم شيئاً

لأعطاك مولاك كل ما تريد»، إبراهيم عليه السلام ترك هاجر وابنه إسماعيل بوادٍ لا زرع فيه ولا ماء، فإذا هو نبيٌّ يأمر أهله بالصَّلاة والزَّكاة، وما ضاع يونس عليه السلام مجرداً في العراء، ومن فوض أمره إلى مولاه حاز مناه، وأَكْثِرْ من دعوة ذي النُّون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية ٨٧]، يقول العلماء: «ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله كربه»، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقد جُرِّب أن من قال: «ربِّ إني مسَّني الضُّر وأنت أرحم الراحمين» سبع مرات كشف الله ضرَّه».

فألق كنفك بين يدي الله وعلِّق رجاءك به، وسلِّم الأمر للرحيم، واسأله الفرج، واقطع العلائق عن الخلائق، وتحرَّ أوقاتَ الإجابة كالسُّجودِ وآخرِ الليل، وإيَّاك أن تستطيل زمن البلاء، وتضجَر من كثرة الدعاء فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصَّبر والدُّعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء فالفرج قريب، وَسَلْ فاتح الأبواب فهو الكريم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: الآية ١٧]، وهو الفعَّال لما يريد، بلغ زكريّا عليه السلام من الكبر عتياً ثم وهب بسيد من فضلاء البشر وأنبيائهم، وإبراهيم عليه السلام بشر بولد وامرأته تقول بعد يأس من حالها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: الآية ٧٢].

وإن استبطأتَ الرِّزق فأكثر من التَّوبة والاستغفار فإنَّ الزَّلل يوجب العقوبة، وإذا لم ترَ للإجابة أثراً فتفقد أمرك فربَّما لم تصدق توبتك، فصححها ثم أقبل على الدعاء، فلا أعظم جوداً ولا أسمح يداً من الجواد، وتفقد ذوي المسكنة فالصدقة ترفع وتدفع البلاء.

وإذا كُشِفت عنك المحنة فأكثر من الحمد والثناء، واعلم أنَّ الاغترار بالسَّلامة من أعظم المحن، فإن العقوبة قد تتأخَّر، والعاقل من تلمح العواقب. فأيقن دوماً بقدر الله وخلْقِهِ وتدبيره، واصبر على بلائه وحكمه، واستسلم لأمره.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبَة: الآية ٥١] .

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبيَّنا محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً مزيداً.

أما بعد: أيها المسلمون:

فالأحوال لا تثبت على حال، والسعيد من لازم التقوى، إن استغنى زانته، وإن افتقر أغنته، وإن ابتلي جَمَّلته، فلازم التَّقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، ولا في المرضَ إلا العافية، ولا في الفقر إلا الغنى، والمقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُقدَّر لا حيلة في تحصيله، والرِّضا والتَّوكل يكتنفان المقدور، واللَّهُ هو المتفردُ بالاختيار والتَّدبير، وتدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وهو أرحم به منه بنفسه، يقول داود بن سليمان ـ رحمه الله ـ: «يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التَّوكل فيما لم يَنل، وحسن الرِّضا فيما قد نال، وحسن الصَّبر فيا قد فات».

ومن رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به، ومع هذا فلا خروج عمَّا قدر عليك. قيل لبعض الحكماء: «ما الغنى؟ قال: قلة تمنِّيك ورضاك بما يكفيك»، يقول شريح ـ رحمه الله ـ: «ما أُصيب عبد بمصيبة

إلا كان له فيها ثلاث نعم: أنها لم تكن في دينه، وأنها لم تكن أعظم مما كانت، وأن الله رزقه الصَّبر عليها إذْ صبر».

ثم صلُّوا وسلِّموا ـ عباد الله ـ على خير خلق الله، محمد بن عبد الله، فقد أمركم الله بالصَّلاة والسَّلام على نبيه. . .